مريم الطاهرة[1]

آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي
قدس سره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

مريم الطاهرة (عليها السلام)

كانتا أختين طاهرتين عفيفتين، إحداهما (حنّة) والأخرى (حنانة) وقد سعدهما الحظ.

فتزوّج بإحداهما وهي (حنانة) النبي العظيم زكريّا (عليه السلام).

وتزوّج بالأخرى، وهي (حنّة) الرجل الصالح السعيد (عمران).

لكن من غريب الأمر أن الأسرتين لم يتحفا بأولاد، مدة مديدة من الزمان.

لقد كان زواج حنّة بعمران مباركاً إلى أبعد حد، وكان يسود الأسرة الرفاه والألفة والسرور.. لكن هذه النقطة، وهي عدم إنجابها الولد، كانت تلقي في نفسيهما الحزن والأسى.

وخصوصاً في نفس الفتاة الحنون، إنها كانت تحب أن ترى إلى جنبها طفلاً يؤنس وحشتها، ويلقي في نفسها البهجة، وتناغيه في أوقات الوحدة.

لكن الأقدار ما كانت تسمح بذلك، وكلّما تقدّم بها السّن، ازدادت كآبة وحسرة، وذات مرّة، رأت طائراً يزق فرخه، فانبعثت في نفسها موجةٌ من الألم المشوب بالأمل، فهل يمكن أن تزرق ولداً تزقه، كما يزق هذا الطائر فرخه؟

وكلّما رأت أمّا إلى جنبها طفل، تذكّرت أملها وألمها.

وهكذا مرّت الأيام عابسة لا ترى فيها بصيصاً من النور، وكانت قلقة لما تعانيه من العقم.

---

(١) ملاحظة: أخذنا نص هذا الكتاب من الانترنيت موقع الإمام الشيرازي قدس سره، ولابد من مطابقته مع الأصل المطبوع للتأكد من سلامته وعدم التغيير والحذف والتبديل فيه.

* * *

موجةٌ من السرور غمرت بيت (عمران) حين أخبر زوجته (حنّة) أن الله أوحى إليه أنه يهبهما ولداً.

لقد تهلّلت أسارير وجه (حنّة) وانقلب العبوس في وجهها سروراً، وأخذت تبسم بعد طول كلوح(١).

يا لها من فرحة! إنها ترزق الولد الذي كانت تتمناه منذ لحظة اقترانها بـــ(عمران).

ولم تمض الأيّام واللّيالي، إلا وتحس بأن الجنين يتحرّك في بطنها، فيا للفرحة ويا للسرور! لقد تحقّقت الأماني، وتبسّمت الأيّام، وهاهو الجنين الموعود يتحرّك، دليلاً على رشده ونموّه.

إنها تحسب للجنين ألف حساب وحساب، شأن الأمّهات اللاتي يرجين مستقبل أولادهن.

لكن المرأة الصالحة (حنّة) شكرت لله عطيته، وعرفت لله سبحانه فضله وكرمه، بهبتها هذا الجنين، فأرادت أن تقابل العطيّة بالشكر، فنذرت أن يكون الولد (محرّراً)(٢) لخدمة بيت المقدس.

(إذ قالت امرأة عمران ربّ إني نذرت لك ما في بطني محرّراً) عتيقاً لا تشغله أمور الدنيا، بل يكون خالصاً لخدمتك وخدمة بيتك، وخدمة العباد (فتقبّل) يا رب هذا النذير (مني إنك أنت السميع العليم).

وهكذا أخذت (حنّة) تعد الأشهر والأسابيع والأيّام، لمقدم هذا الضيف الجديد، الذي غمر حياتهم بهجة وفرحاً، بعد طول يأس وأسى.

* * *

لم تمض الأيام، إلا و(حنّة) تحس بألم الطلق، فيا له من ألم مفرح، فها هي الساعات الأخيرة، التي تمنح فيها ما كانت تترّقبه بفارغ الصبر.

وإذا.. بالمولود قدّم إلى هذه الحياة، وفتح عينيه للنور.

لكن.. مرّة ثانية غمرت (حنّة) الأمّ، موجةٌ من الحزن، وإن لم يكن الحزن في هذه المرّة، مثل الحزن الذي كان يراودها، وهي حائل.

إنه الحزن بكون الولد (أنثى) فيا لخيبة الأمل، ويا لانهدام الرجاء، فقد كانت ترجو أن يكون المولود (محرّراً) لكن الأنثى لا تصلح للتحرّر، إن المحرّر ولد يناسب دور العبادة، أمّا الأنثى فكيف تعاشر الرّجال؟

ثم إن المحرر يلازم المسجد طول حياته، وإن خرج في ساعات، لم يلبث إلا أن يرجع أمّا الأنثى فلا تقدر على المكث في المسجد في أيام عادتها، ولا مأوى لها لتقضي تلك الأيام هناك.

إنه لا مفرّ من قضاء الله، إنها أنثى، وقد تمّ الأمر، وليس بيد الأم شيء، فسمّتها (مريم) بمعنى (العابدة) ليكون الاسم قريباً مما كانت تقصده من الخدمة للبيت الذي هو للعبادة.

(فلمّا وضعتها قالت) (حنّة) يائسة حزينة، شاكية خيبتها إلى الله سبحانه: (ربِّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) فلا يأتي من الأنثى خدمة المسجد كما كان يأتي من الذكر، (وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك) يا رب (و) أعيذ (ذرّيتها من الشيطان الرجيم) فتلطف عليها وعلى ذرّيتها بحفظك وحراستك، ورعايتك وكلاءتك.

* * *

إن (حنّة) لم تكن تعلم الدور الذي قُدّر لمريم عليها السلام من عالم الغيب، ولم تكن تعلم أنها صديقةٌ طاهرة، لا ترى الدّم، ولم تكن تعلم أنها أفضل من ألف ولد وولد.. فلها الحق في أن تحزن حين تعرف أنها أنثى.

ولو كانت تعرف (حنّة) كل ذلك، لغمرتها موجةٌ من السرور عوض الحزن، والفرح، عوض اللوعة.

ومن ناحية أخرى.. لو كانت تعلم (حنّة) الأم الحنون ما قدّر لبنتها الطاهرة (مريم) من الأتعاب والمصائب، لذرفت الدموع الساخنة، ولعصرت فؤادها الأحزان والأشجان.

إن (مريم) الطاهرة، لابد وان تلاقي مصاعب (الولادة) لوليد بدون أب! وهل يقبل منها أحد ذلك؟ إن مثل هذه الفاجعة لتدكُّ الجبال الرواسي، فكيف بقلب فتاة طاهرة بريئة؟

إن (مريم) الطاهرة، لابد وان تلاقي لوم اليهود وقذفهم، وافتراءهم(٣)، بما تكاد السماوات يتفطّرن منه، وتنشقّ الأرض، وتخرّ الجبال هدّاً.

إن (مريم) الطاهرة، لابد وان تلاقي ــ بعد هذا وذاك ــ مصاعب نبوّة ولدها المسيح (عليه السلام)، وكيد اليهود له، وغربتها وغربة ولدها، في الفيافي والجبال، حيث تلفحهما الشمس بحرارتها، وحيث لا يجدان ملجأ ولا مأكلاً ولا ملبساً، إلا عشب الأرض وكهوف الجبال والأسمال البالية.

إن (حنة) الأم الرؤوف لا تعرف ذلك المستقبل الإلهي المشرق، ولا ذلك المستقبل الاجتماعي الأليم، لبنتها الصغيرة (مريم) وإنما تعرف أنها (أنثى) وأنها خابت في ظنونها ورجائها.

* * *

وأخيراً.. استقرّ رأي (حنة) على أن تهدي بنتها (مريم) إلى بيت المقدس، كما نذرت والعبّاد هم يعرفون تكليفها، ما يصنعون بها؟

ولقد كان الأشد على (حنّة) أنها كانت تقاسي كلّ هذه الآلام والحيرة، وحدها، فقد فقدت زوجها (عمران) قبل ولادة (مريم) مما زاد في حزن الأمّ وألمها.. لقد مات الزوج الشاب الصالح قبل أن يرى الوليد الذي طالما تمنّاه، يا لها من مصيبة على قلب (حنّة)! ويا لها من دمعة في مآقيها! ويا لها من غصّة في حلقها!

فلقد فقدت الزوج والكفيل، وبقيت تقاسي آلام الحياة وحدها، ثم خاب ظنّها بالجنين الذي عقدت ــ بعد فقد الزوج ــ آمالها عليه، لعلّه يكون ولداً، تعيش الأم في ظله بدلاً من أبيه!

وما فائدة الحزن واللوعة؟ فالمقدّر كائن.

لفّت (حنّة) بنتها الوليدة في القماط، وتقدّمت إلى بيت المقدس، حيث العبّاد. ثم سلّمتها إلى جماعة من الناسكين الذين كانوا لربهم يرهبون، وقصّت لهم قصّتها..

تهافت الناسكون على أخذ البنت، بكل شوق وسرور، عندما علموا أنها بنت زميلهم الفقيد (عمران) وابنة أخت زوجة سيّدهم ونبيهم زكريا (عليه السلام).

وحيث أن الرضيع تحتاج إلى عناية ورعاية، حتى تكبر وتنمو وتنشأ، وقع بينهم الخلاف فيمن يكفلها؟ فكان كل واحد يرشّح نفسه لكفالتها، وكان (زكريّا) من جملة المرشّحين نفسه لذلك، ويحتج بأنه أحق لأن (مريم) تمت إليه بصلة، وأن في داره خالة مريم (حنانة).

* * *

لم يقبل الأحبار أن تسلّم البنت إلى (زكريّا) زوج خالها، بالرغم من صحة احتجاج زكريّا. وأخيراً قرّروا جميعاً الاقتراع، بأن يلقوا أقلامهم التي يكتبون بها التوراة، في الماء، فالقلم الذي يطفوا فوق الماء يتولّى صاحبه تربية (مريم).

وقد كانت الأقلام من الحديد، ولذا كان طفوّها على الماء شيئاً خارقاً(٤).

(وما كنت لديهم) يا رسول الله (إذ يلقون أقلامهم) في الماء (أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) في أمر كفالة بنت زميلهم؟

ولعلّ الأحبار إنما اختصموا في هذا الأمر، لما وصل إلى علمهم، من جلالة مريم، ومستقبل أمر عيسى (عليه السلام)، فإن الأنبياء السابقين كانوا يبشرون بالأنبياء اللاحقين، كما أن الأنبياء اللاحقين كانوا يصدّقون بالأنبياء السابقين.

ولعل مناسبة الاقتراع بالأقلام بمناسبة الإرهاص بنبوّة المسيح (عليه السلام) المناسب لكتاب الإنجيل، المكتوب بأقلامهم.

وكيف كان.. فقد رسبت أقلام الأحبار في الماء، وبقي قلم زكريا طافياً فوق الماء فوافق الجميع على أن تكون مريم في كفالة زكريا.

وماذا كان يعمل زكريّا أيّام رضاع البنت؟ هل أخذ لها مرضعاً؟ أو جعلها في بيت المقدس وكان يأتي باللبن إليها؟ ثم ماذا كان يصنع بسائر شؤونها؟ كل ذلك مما لا نعلمه.

نعم.. (تقبّلها ربها بقبول حسن) فإنها وإن كانت أنثى، لكن ربها قبلها محرّرة في بيت المقدس (وأنبتها نباتاً حسناً) فكانت تنمو نمواً سريعاً، بكل نظافة ونضارة مما كان يبشّر بمستقبل زاهر.

* * *

وضع زكريا (عليه السلام) مريم الطاهرة في غرفة رفيعة منعزلة عن محل الأحبار، لا يمكن الوصول إليه إلا بسلم عال.

وأخذ يواظب على رعايتها والعناية بها، فكان يأتي إليها في كل حين، ليتفقّدها، ويقوم بخدماتها.

وهكذا استمرّ زكريّا في خدمة البنت الطـــــاهرة، حتى نشأت وكبرت، وذات يوم دخل عليها، وإذا به يرى بعض الفواكه والأطعمة الطيبة عندها.. دهش لذلك. يا ترى من الذي جاء إلى غرفتها، وأهدى إليها هذه الهدية الحسنة؟ أليست الغرفة مغلقة؟ أليست هي التي لا ترضى أن يدخل عليها أحد؟

وهكذا وجد الرزق عندها مرّات ومرّات.. والأعجب أن الفواكه التي كان يجدها عند (مريم) تثير الدهشة، ففواكه الشتاء يجدها عندها في أيام الصيف، وفواكه الصيف، يجدها عندها في أيام الشتاء؟

(كلّما دخل عليها زكريّا المحراب) أي في محراب عبادتها، وفي الغرفة الخاصّة بها (وجد عندها رزقاً) وذات مرّة سأل زكريا (مريم) عن مصدر هذا الرزق (قال يا مريم أنى لك هذا)؟ فمن أين يأتيك هذا الطعام وهذه الفواكه؟

(قالت) مريم: (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) هناك عظم تقدير زكريّا لمريم وعلم أنها مائدة سماوية، اختص الله بها مريم كرامةً لها وإجلالاً لقدرها.

وكم كانت غبطة زكريّا عظيمة حين رأى مثل هذه الكرامة لفتاة تمتّ إليه بصلة!

* * *

أخذت الأيام تمضي مسرعة، والفتاة مشتغلة بتبتلها وعبادتها، خالصةً لوجه الله تعالى، لا تعرف أسرة تعوقها عن العمل لله، ولا منيت بعمل دنيوي، يحول بينها وبين الاستمرار في الطاعة والعبادة.

وذات مرة دهشت أشد الدهشة، مما وقف له شعرها، ووجب(٥) له قلبها، إذ سمعت صوتاً من جهة الأعلى، و لم تر الشخص الذي كان يتكلّم بكلام عجيب، قائلاً:

(يا مريم إن الله اصطفاك) اختارك لأن تكوني مورد لطفه وعنايته (وطهّرك) عن الذنوب والأرجاس(٦)، وعن الدماء التي تراها النساء (واصطفاك على نساء العالمين) فأنت سيدة نساء زمانك ـــ بكل عوالمه ـــ .

أمّا سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، فهي (فاطمة الزهراء) بنت محمد (صلى الله عليهما وعلى آلهما).

ثم أردف القائل الغيبي كلامه: (يا مريم اقنتي) واخضعي (لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) الأحبار الذين يركعون في بيت المقدس، فأنت من جملتهم وفي جماعتهم.

تهلّلت أسارير (مريم) لهذا النداء الغيبي، وعرفت أن النداء كان من الملائكة، وأنها موضع لطف الله وحسن رعايته، فاستبشرت وفرحت، وأخذت تجد في العبادة، شكراً لهذه العطية السنيّة، وقياماً بالواجب تجاه هذه النعمة الجليلة.

وهكذا مضت عجلة الزمان، لا تلوي على شيء.

فها نحن أمام فتاة عفيفة طائعة لربها في غرفة منعزلة في بيت المقدس، يعاهدها زوج خالتها، منقطعة عن الأب والأم، فقد مات أبوها قبل أن ترى النور، والأمّ سلّمتها بيد الزهاد (محرّرة) لا شأن لها بها، لتنظر ما خبّأ لها المستقبل.

* * *

لقد أثارت المكرمة التي رآها (زكريا) في (مريم) كامن رغبته، التي طالما تمنّاها، في أن يرزق الولد، أليست زوجته (حنانة) وأم مريم (حنة) أُختين؟ ألم تكونا تنتظران الولد منذ مدّة؟ فها هو لطف الله سبحانه يشمل (حنة) فيهبها البنت الطاهرة (مريم) فما المانع من أن يتفضّل الله سبحانه على زكريا بولد من خالة مريم؟

إن أيّام زكريّا قد انقضت، وإن نذير الموت قد لاح في مفرقه، وإن المرأة (حنانة) زوجة زكريّا، اشتهرت بين الناس أنها عقيمة، ولا أدلّ على صدق قول الناس من أنها لبثت هذا الزمان الطويل، بدون ولد.

لكن الله قادر على كل شيء، فهو يستطيع أن يخلق الإنسان من التراب.. وقدرته على إعطاء الولد من أبوين أولى ـــ وإن كانت قدرة الله بالنسبة إلى كل شيء على حد سواء ـــ .

(هنالك) في هذا الوقت، بقلب ملؤه الرجاء (دعا زكريّا ربه قال ربِّ هب لي من لدنك ذرّيةً طيّبةً) فيها طيب العقيدة والأخلاق والبركة (إنك) يا رب (سميع الدعاء).

وقد أشفع زكريا دعاءه هذا بالضراعة والاستكانة، فقال: (ربّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً) فعظمي واهن ضعيف من الكبر ورأسي مبيض كأنه شعلة من الشيب (ولم أكن بدعائك ربي شقيّاً) فلا أحرم الإجابة فيما دعوتك (وإني خفت الموالي) أقاربي (من ورائي) من بعدي، فإنهم لا يليقون بمقام الخلافة لي والسهر على الدين ومصالح الأمة (وكانت امرأتي عاقراً) لا تلد.

وقد استجاب الله دعاء زكريّا، وتفضّل بإعلامه ذلك، فقال عزّ شأنه: (يا زكريّا إنا نبشّرك بغلام اسمه يحيى) فقد عيّنّا اسمه، تفضّلاً منا عليه وعليك، و(لم نجعل له من قبل سميّاً) فكان يحيى ابن خالة مريم.

* * *

دارت عجلة الأيّام على (مريم) وهي تعبد الله في محرابها، داخل بيت المقدس ولم يكن لها عشيق، ولا زوج، ولا خدن(٧)، ولا خطيب.

أما حديث يوسف النجار، فحديث مفتعلٌ(٨) اخترعه مردة أهل الكتاب.

كما أنها لم يكن لها أولاد آخرون، يقوم المسيح (عليه السلام) بكفالتهم، من مهنة النجارة.

إنها مريم الصديقة العذراء التي لم تر رجلاً، ولم يكن لها ولد إلا عيسى المسيح (عليه السلام).

وفيما كانت تعبد (مريم) ربّها تبدّلت الأحوال فجأة، فقد أرادت الاغتسال، فانتحت ناحية المشرق، بحيث صار أهلها في طرف المغرب، ولعلّها جاءت إلى طرف المشرق من بيت المقدس، لكونه في جهة الشمس فيناسب الاغتسال (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً) انتبذت، أي تنحّت في مكان في طرف المشرق من مسكنها. (فاتخذت من دونهم حجاباً) يسترها عن أعينهم (فأرسلنا إليها روحنا) أي روحاً من طرفنا ـــ والإضافة للتشريف ـــ وكان ذلك الروح جبرائيل (عليه السلام). (فتمثّل) ذلك الروح (لها) أي لمريم (بشراً سويّاً) أي شاباً مكتملاً غير ناقص.

لكن مريم الطاهرة، اضطربت حين رأت هذا الفتى في مثل هذه الحالة، أشد الاضطراب، فإن البنت الباكر العفيفة، إذا اتفق لها مثل هذا الحادث ترتعد وتخاف على شرفها، أليس مثل هذا الشخص، الذي يفاجئها يريد عفافها. وماذا تصنع مريم وهي فريدة لا تملك سلاحاً ولا دفاعاً؟

ولذا لم تملك مريم عليها السلام إلا الوعظ والنصيحة، والاستعاذة بالله سبحانه من شره (قالت إني أعوذ بالرحمن منك) أيها الفتى (إن كنت تقيّاً) تخاف الله سبحانه.

* * *

لكن الفتى أجاب مريم بما زاد مخاوفها (قال) جبرائيل (عليه السلام): (إنما أنا رسول ربك) مرسل من قبله، ولست بشراً، كما ظننت، فقد جئتك (لأهب لك غلاماً زكيّاً) ولداً مباركاً.

يا للهول! هل تصدّق مريم بأن هذا جبرائيل؟ ثم لنفرض أنه جبرائيل، فكيف يهب لها غلاماً بدون زوج؟ ولنفرض أنه وهبه بأمر الله، فماذا تقول مريم للناس؟ هل يصدّقها الناس ويعترفون بالواقع أم يفترون عليها بما لا يليق بساحتها؟

كل ذلك مر بخاطر مريم ـــ كما هو الطبيعي، في أقل من لمحة بصر ـــ لكن هول الموقف، لم يعقد لسانها، بل أخذت تحاج وتكلم جبرائيل: (قالت أنّى) وكيف (يكون لي ولد و) الحال أنه (لم يمسسني بشرٌ) فلم يقترب مني رجل اقتراب الزوج من زوجته، (ولم أكُ بغياً) زانية؟ فإن الولد ـــ في العادة ـــ يكون إما من الزواج أو السفاح، ولم يحصل لي أحد الأمرين، فكيف يكون لي ولد؟

(قال) جبرائيل في جواب سؤال مريم: (كذلك) أي كذا الذي ذكرت لك (قال ربك) يا مريم: (هو عليّ هيّن) إعطاء الولد بدون نكاح أو سفاح على الله أمرٌ سهل يسيرٌ. فإن قدرته سبحانه عامّةٌ على كل شيء.

ثم بيّن جبرائيل أن إعطاء الولد لك بدون أب ليس أمراً اعتباطياً بل (ولنجعله آيةً للناس) حجةً لله على البشر، حجة من حيث القدرة وحجة من حيث النبوة (ورحمةً منّا) فإن المسيح (عليه السلام) كان رحمةً من الله على البشر، يرشدهم إلى الحق وإلى سبيل السعادة والسلام.

ثم أردف جبرائيل قائلاً: (وكان) إعطاء الولد لك (أمراً مقضياً) لا بد وأن يكون، فليس محل احتجاج، وطلب، لرفع هذا الشيء المقدر، وذلك ليقطع على مريم سبيل المحاورة والمحاجّة حول الولد، فلا تترقّب صرفه بالدعاء وما أشبه.

* * *

نفخ جبرائيل (عليه السلام) في جيب مريم عليها السلام، فاكتمل عيسى في بطنها في الساعة (فحملته) أي حملت بعيسى (فانتبذت) أي ابتعدت وتنحّت (به) أي بحملها (مكاناً قصيّاً) أي بعيداً عن أهلها، وذلك لئلاً يروها على حالة الحمل فيلوموها، وتكون مورد سؤالهم.

وقد ورد أن مدّة حملها كانت تسع ساعات.. وأنها جاءت إلى كربلاء المقدسة بقدرة الله تعالى، وليس مثل هذه الأمور بعيداً عن قدرة الله تعالى.

(فأجاءها المخاض) أي ألجأها الطّلق ووجع الولادة (إلى جذع النخلة) لتستند إليها والجذع ساق النخلة.. وكم كانت الأحزان والهموم تتراكم على قلب المخدّرة(٩) الطاهرة مريم، إذ ترى نفسها في وضع غريب، ليست له سابقةٌ في تاريخ الفتيات الصالحات؟

فقد أخذت منها الدهشة كل مأخذ، كيف حملت؟ وكيف تفرّدت في صحراء قاحلة للوضع؟ وكيف يلقاها الناس؟ وما هذا الولد؟ وأي أمرٍ مقدّر هذا؟

ومن الطبيعي أن تنهمر عينا الصديقة الطاهرة بالدموع، (قالت) بكل لوعة وأسى: (يا ليتني متُّ قبل هذا) الذي أراه مما وقعت فيه (وكنت نسياً منسياً).

وفي هذه الأثناء، جاءت بعيسى المسيح، ولداً جميلاً، كامل الخلقة، يطفح وجهه المنير بالبشر والسرور، كفلقة القمر ليلة البدر.

وبمجرّد أن سقط عيسى على الأرض، ورأت مريم وجهه المبارك، جعل الله في قلبها محبته المتزايدة، وكأنّ يد الرحمة لمست قلب الأم، فأعادت إليه الطمأنينة والارتياح..

إنه ليس بولد عادي كسائر الأولاد، بل هو نبي عظيم ادّخره الله سبحانه لأداء رسالة مهمة.

* * *

وهنا لتسلية قلب الأم، وإقناعها أن الأمر من الأمور المرتبطة بالسماء، أنطق الله الولد (فناداها) أي كلّم المسيح، أمّه (من تحتها) أي الأسفل، من الأرض، قائلاً: (ألاّ تحزني) يا والدتي، من هذا الحادث (قد جعل ربك تحتك سريّاً) أي جدولاً سارياً من الماء، فقد ضرب المسيح برجله على الأرض ـــ كعمّه الأعلى إسماعيل (عليه السلام) ـــ فانفجرت الأرض ماءً.

(وهزّي) أيتها الأمّ (إليك) أي اجذبي نحو نفسك (بجذع النخلة) الموجودة إلى جنبك، ليقع فيها الاهتزاز، فإن هززته (تساقط عليك رطباً جنيّاً) طريّاً قد جني الساعة.

وكذلك فعلت الأم الوالدة، هزّت الجذع، فأسقط الرطب (فكلي) من الرطب (واشربي) من الماء (وقرّي عيناً) أي طيبي نفساً بهذا الولد.

فأكلت مريم من الرطب، وشربت من الماء، وقرّت عينها بولدها.

ولماذا تخاف وتقلق؟؟

لقد ذهبت عنها وحشة الانفراد، بولدها الجميل، وذهب عنها ألم الطّلق، وارتوت من الماء، وشبعت من الرطب الجنيّ، وفوق ذلك كلّه إنها تعلم إمداد السماء لها، فقد تواترت الخوارق عليها:

رأت الملائكة، وحملت بلحظة بدون رجل، وانطوت تحتها الأرض مسافات شاسعة من فلسطين إلى العراق، و لم يطل حملها أكثر من تسع ساعات، ثم انفجرت عين الماء تحت رجل ولدها، وأخذ الرضيع يتكلّم..

وهل بعد هذا كله من قلق واضطراب؟

* * *

نعم.. بقي شيء، فبماذا تجيب الناس، إذا سألوها عن أمر الوليد؟ إنها حقّاً مشكلة تقلق بال الإنسان، ولو علم أنه على حق.

وقد شاء سبحانه أن يحل المسيح الوليد (عليه السلام) هذه المشكلة، فيتكلّم ثانية ليقول لأمه:

(فإمّا) أي إن (ترينّ) أيتها الأمّ (من البشر أحداً) فسألك عن الولد: من أين أتيت به من غير زوج؟ (فقولي) في الجواب، إشارةً مفادها: (إني نذرت للرحمن صوماً) وكفّاً عن الكلام (فلن أكلّم اليوم إنسياً).

وقد كان ذلك، لأجل أن لا يرهقها الناس بالمجادلة. وإنما تكتفي بكلام المسيح (عليه السلام) جواباً عن أسئلة الناس.. فيكون جواباً وحجة.

وهنا فرحت مريم أشد الفرح، إذ انحلّت كل مشكلتها، وانجلى ما بها من هموم وأحزان.. فقمّطت الوليد، وأخذته قاصدة نحو أهلها (فأتت به) أي بالمسيح (قومها تحمله) على يديها، ولّما رآها القوم غمرتهم موجة من العجب، فها هي مريم الطاهرة الصديقة، تحمل طفلاً؟ من أين؟ وكيف؟ ولذا تقدّموا إليها و(قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّاً) أي أمراً عظيماً عجيباً.

(يا أخت هارون) يا أيتها الشبيهة بهارون الرجل الصالح ـــ وقد كان هارون رجلاً صالحاً يشبه به كل من عرف بالصلاح ـــ من أين لك هذا الولد من غير زوج؟ أمن السفاح وكيف ذلك؟ فإنه (ما كان أبوك) عمران (امرأ سوء) يعمل القبيح (وما كانت أمك) حنّة (بغيّاً) حتى نقول إنك تعلّمت البغاء منهما؟ فمن أين لك هذا الولد؟

* * *

نعم.. بقي شيء، فبماذا تجيب الناس، إذا سألوها عن أمر الوليد؟ إنها حقّاً مشكلة تقلق بال الإنسان، ولو علم أنه على حق.

وقد شاء سبحانه أن يحل المسيح الوليد (عليه السلام) هذه المشكلة، فيتكلّم ثانية ليقول لأمه:

(فإمّا) أي إن (ترينّ) أيتها الأمّ (من البشر أحداً) فسألك عن الولد: من أين أتيت به من غير زوج؟ (فقولي) في الجواب، إشارةً مفادها: (إني نذرت للرحمن صوماً) وكفّاً عن الكلام (فلن أكلّم اليوم إنسياً).

وقد كان ذلك، لأجل أن لا يرهقها الناس بالمجادلة. وإنما تكتفي بكلام المسيح (عليه السلام) جواباً عن أسئلة الناس.. فيكون جواباً وحجة.

وهنا فرحت مريم أشد الفرح، إذ انحلّت كل مشكلتها، وانجلى ما بها من هموم وأحزان.. فقمّطت الوليد، وأخذته قاصدة نحو أهلها (فأتت به) أي بالمسيح (قومها تحمله) على يديها، ولّما رآها القوم غمرتهم موجة من العجب، فها هي مريم الطاهرة الصديقة، تحمل طفلاً؟ من أين؟ وكيف؟ ولذا تقدّموا إليها و(قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّاً) أي أمراً عظيماً عجيباً.

(يا أخت هارون) يا أيتها الشبيهة بهارون الرجل الصالح ـــ وقد كان هارون رجلاً صالحاً يشبه به كل من عرف بالصلاح ـــ من أين لك هذا الولد من غير زوج؟ أمن السفاح وكيف ذلك؟ فإنه (ما كان أبوك) عمران (امرأ سوء) يعمل القبيح (وما كانت أمك) حنّة (بغيّاً) حتى نقول إنك تعلّمت البغاء منهما؟ فمن أين لك هذا الولد؟

* * *

لم تجب مريم على كلام القوم، (فأشارت إليه) إلى عيسى، حسب ما قرّر بين الرضيع والوالدة، إشارة معناها: وجّهوا سؤالكم إلى عيسى؟

(قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيّاً)؟ وهل يتمكّن الرضيع الذي من شأنه أن يوضع في المهد من التكلّم والجواب؟

لكنّ الرضيع بادر بالجواب ـــ بإذن الله تعالى ـــ ليجيب جواباً مقنعاً، مشفوعاً بإعجاز، فـــ(قال) موجّهاً كلامه إليهم: (إني عبد الله) وقد فنّد المسيح (عليه السلام) بأول كلامه عندهم مزاعم المسيحيين أنه الله، أو أنه ابن الله (آتاني الكتاب) أعطاني الإنجيل (وجعلني نبيّاً) فقد أوتي عيسى كسائر الأنبياء، النبوّة والكتاب، منذ عالم الذّر، وإنما الإظهار كان في وقت متأخر.

(وجعلني) الله (مباركاً) ذا بركة ونموّ للخير (أينما كنت) لا كالمثري الذي له الثراء عند دكانه وصندوقه، أو كذي المنصب الذي له مقامه في مكان دون مكان. (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً) مكلّفاً.

(و) جعلني (برّاً) أي بارّاً رؤوفاً (بوالدتي) الطاهرة مريم (عليها السلام) (ولم يجعلني جبّاراً) يؤذي الناس ويجبرهم كالطغاة (شقيّاً).

(والسلام عليّ) السلامة من العاهات الجسمية، والأوضار الروحية (يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً).

وحيث سمع الناس هذا الكلام البديع من عيسى، أخذهم الدهشة، وعلموا أن الأمر خارق، وإنما أراد الله بمريم الصديقة الخير والسعادة، حيث أتحفها بهذا المولود العظيم، وانقطع المجادلون عن الكلام بعد هذه المعجزة الباهرة.

١ ــ الكلوح: العبوس.

٢ ــ محرر: موقوف لطاعة الله وخدمته.

٣ ــ القذف: الاتهام بريبة، والافتراء: الكذب.

٤ ــ الخارق: ما يخالف العادة.

٥ ــ وجب: رجف وخفق.

٦ ــ الأرجاس: الأعمال القبيحة.

٧ ــ الخدن: الحبيب والصاحب.

٨ ــ مفتعل: مختلق.

٩ ــ المخدّرة: المستترة في بيتها لا تخرج منه.